مـــوسى

عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، ولا تخافى ولا تحزنى، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

وهكذا نرى من مبدأ قصة موسى عليه السلام عناية الله به ورعايته له، وهذه العناية والرعاية ليست خاصة بموسى، وإنما يقدرها الله سبحانه وتعالى لكل من يصطفيهم، إنه يقدرها لهم أزلاً، فيأتون إلى العالم وقد خططت حياتهم ورسمت فى حكمة دقيقة، لقد رسمت من قبل أن يولدوا بحيث اختار الله لهم الآباء الشرفاء والأمهات الأطهار.

يقول إمامنا البوصيرى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

لم تزل فى ضمائر الكون تختار لـك الأمهـــات والآبـــاء

وانظر إلى السيدة مريم رضى الله عنها حينما استعاذت بالرحمن من هذا

الذى تمثل لها بشرًا سويًّا، فقال مطمئنًّا ومهدئًا:

﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًّا﴾

فلما استغربت ذلك قائلةً:

﴿أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيًّا﴾.

بين لها أن المقادير الإلهية رسمت الحياة منذ الأزل قائلًا:

﴿كذلك قال رُبكِ هو على هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا، وكان أمرًا مقضيًّا﴾.

فقد كان أمرًا مقضيًّا قبل أن يولد عيسى عليه السلام، وكان أمرًا مقضيًّا شاءت أمه أو أبت.

ونعود بعد هذا إلى سيدنا موسى عليه السلام فنرى أن حكمة الله اقتضت أن يولد فى عام يقتل فيه المواليد من أبناء اليهود عقابًا لهم على بغيهم وطغيانهم وإفسادهم، وكان من تدبير هذه الحكمة فى ذلك أن يربى هذا الوليد فى القصر الملكى حيث العناية التامة صحيًّا، وحيث العناية التامة ثقافيًّا، وحيث الفرصة متاحة فى القصر لمعرفة السياسة وأسرار الحكم وتصريف الأمور وتدبير شئون الدولة وقيادة الأفراد.

لقد كان سيدنا موسى يعد للنبوة، والنبوة قيادة لجميع أقطار الإنسان وقيادة لجميع زوايا المجتمع فى الجانب السلوكى والاجتماعى، فى الإرادات

والنوايا، فى الأخلاق والتصرفات، وفى كل ما يأتيه الإنسان أو يدعه من مسائل العقيدة والأخلاق والتشريع.

ودبرت العناية الإلهية الأمور على الوضع الذى يقصه الله تعالى فى أكثر من سورة من سور القرآن.

ومن الواضح السافر الذى لا لبس فيه أن الله سبحانه وتعالى كان يصطنعه لنفسه كما يقول سبحانه:

﴿واصطنعتك لنفسى﴾.

وأنه سبحانه كان يصنعه على عينه كما قال سبحانه:

﴿ولتصنع على عينى﴾.

وتبدأ قصة موسى عليه السلام بأن أمه حملت به فأصابها من الهم ما الله به عليم، لقد سرح بها خيالها فى مستقبل هذا الحمل وفيما ينتظره من مصير، لقد كانت تفكر فى الأمر نهارًا وكانت تفكر فيه ليلًا، وأصبحت فريسة للهواجس لا تفارقها.

فطمأنها الله سبحانه، وأمرها أن تأخذ الأمر فى يسر تام، لقد أمرها إذا ما تم الوضع أن ترضع الوليد رضعة مشبعة ثم تضعه فى صندوق وتلقيه فى النيل.

وأحكمت أم موسى الأمر إحكاما: أحكمته من جهة الصندوق، وكيفيته، وأحكمته من جهة الإلقاء، ووقت الإلقاء ثم ألقته، داعية الله له

بالحفظ وما أن بعد عنها، وتوارى عن نظرها حتى أضحت فريسة للهواجس مرة أخرى، وأخذ الشيطان يهمس فى أذنها، فحدثت نفسها قائلة: ماذا فعلت بابنى؟ لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه، لقد أصبح قلبها معلقًا به فارغًا من غيره، وكادت تعلن الأمر وتذيع الخبر حتى يرد ولدها عليها ولو كان مذبوحًا. ولكن الله عصمها وثبتها وربط على قلبها لتكون من المؤمنين.

* * *

عن ابن عباس رضى الله عنهما - حسبما روى الثعالبى - قال:

«إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصى ووافق خيارهم شرارهم، ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم، وساموهم سوء العذاب، فذبحوا أبناءهم».

ورأى ابن عباس هذا، هو الرأى الاشبه بالحق فى سبب سوء التفاهم، الذى حدث بين المصريين واليهود عندما كان سيدنا موسى على وشك أن يتنسم الحياة.

لقد أفسد اليهود فى أرض مصر حينئذ إفسادا كان من المحتم معه إضعاف شوكتهم، وفى هذه الفترة ولد سيدنا موسى، وكان من ثمار ميلاده فى هذه الفترة، أو من حكمة الله لولادته فى هذه الفترة أن تسير به المقادير

فى عناية تامة إلى أن تضعه فى القصر الملكى يربى فيه، ويعد لمواجهة هذا الظلم الفاجر والفساد العنيد.

وولد موسى، فخافت أمه أن يقتل وألقته فى النهر، وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى، حتى أدخله - كما يذكر النيسابورى - بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هى مستقى جوارى فرعون، وكان بالقرب منها نهر كبير فى دار فرعون، داخل فى بستانه.

فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقين، فوجدن الصندوق قد حمله التيار إلى مستقاهن ومغتسلهن، فأقبلن عليه يتنافسن فى التقاطه، فلما أصبح بين أيديهن أخذن فى التنبؤ بما فيه، أهو كنز من ذهب؟ أهو مجموعة من الجواهر؟ أهو أى شىء آخر؟

وانتهى بهن الرأى إلى أن الأسلم فيما يتعلق بهن أن يذهبن به إلى سيدتهن ربة القصر، امرأة فرعون فحملنه على حالته حتى أدخلنه على «آسية» امرأة فرعون، هذه السيدة التى ضرب الله بها مثلا للمؤمنين، فقال:

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين﴾.

ولقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكمال مسوّيًا فى ذلك

بينها وبين السيدة خديجة الزوجة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والسيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسيدة مريم أم السيد المسيح رضى الله عنهن أجمعين.

وحينما وصلت الجوارى إلى مكان السيدة آسية وضعن الصندوق أمامها فأمرتهن بفتحه، ففتحته، فرأت غلامًا وسيمًا قسيمًا، وألقى الله تعالى فى قلبها محبته، كما قال الله سبحانه:

﴿وألقيت عليك محبة منى﴾.

لقد أشفقت عليه السيدة الكريمة، ورحمته، وأحبته حبًّا لأول نظرة، حبا قويًّا كان من أثره أن وطنت العزم على أن تستنقذه من براثن فرعون وعصابته.

وذهبت بالطفل فى طفولته النضرة، وفى منظره البرىء إلى فرعون، وقالت: قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا.

وذكرت له أن طفلًا واحدًا لا يُزيد فى بنى إسرائيل، واستوهبته إياه ولم تزل ترجو وتتعطف وتسترحم حتى وهبه لها.

وسعدت آسية بفوزها، ونعمت بتحقيق رغبتها، ومكثت هنيهة تداعب الطفل وتدلله، ثم سمته (مو - شى) وهو اسم مركب من كلمتين: كلمة «مو» ومعناها الماء وكلمة «شى» بالامالة ومعناها: الشجر. وذلك أن موسى عليه السلام وجد فى الصندوق بين الماء والشجر، ثم عرّبت الكلمة

فأصبحت موسى.

سعدت السيدة آسية رضى الله عنها بموسى هنيهة من الزمن حينما وهبه فرعون لها، ثم انقلبت سعادتها قلقًا واشفاقًا وذلك حين أحضرت المرضع فلم يقبل على ثديها فأحضرت مرضعًا ثانية فامتنع عليها، وأحضرت ثالثة فرفض الرضاع منها وهكذا.. وأشفقت السيدة الكريمة أن يمتنع عن اللبن فيموت جوعًا وتنتهى حياته فى ساعات فأحزنها ذلك كل الحزن، وأخذت تفكر فى أمره الغريب، لقد نجا من الموت غرقًا وقد كان من الممكن أن ينقلب الصندوق بموجة واحدة فيصير الطفل فى عالم الموتى وقد كان من الممكن أن يقتل قبل إلقائه فى النهر. وكان من الممكن ألا يهبه فرعون لها، لقد نجا الطفل من كل ذلك، أفتكون الأقدار قد ادخرت له الموت جوعًا؟ وأمرت السيدة فى محاولة تجريبية أن يؤخذ إلى السوق وأن يعرض عليه كل من كانت حديثة عهد بالولادة لعله يرضع من إحداهن، ولكنه امتنع وتحقق بذلك قوله تعالى:

﴿وحرّمنا عليه المراضع﴾.

وكان الله سبحانه قد وعد أم موسى برده إليها قائلا: ﴿إنا رادوه إليك﴾.

ومن أجل تحقيق هذا الوعد تصرفت المقادير على النحو التالى:

حينما ألقى موسى عليه السلام فى اليم قالت أمه لأخته «قُصّيه» أى تتبعى أثره فأخذت أخته تتبع أثره معتمدة ألا يبدو منها الاهتمام الخاص

به، واستمرت فى ذلك صابرة منتبهة يقظة إلى كل ما يدور، مما يتعلق بموسى، حتى إذا كان فى السوق تعرض عليه المراضع، تدخلت أخته قائلة:

﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾.

فالتفوا حولها وقالوا لها:

وما يدريك بنصحهم له، ولعلك قد عرفت هذا الغلام، فلتدلينا على أهله، فقالت ما أعرفهم وإنما نصحى له وشفقتى عليه رغبة فى سرور الملك، ورجاء منفعته، وأملاً فى رضاه وهباته.

فأرسلوها لتحضر من أشارت بها، فذهبت إلى أمها وأخبرتها الخبر، فجاءت يملؤها الحنان والشوق، ويغمرها الفرح والرضا.

وما أن قدّمت له ثديها حتى التقمه وأخذ يمتص منه إلى أن امتلأ شبعًا وريًّا.. وطار المبشرون إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا للطفل مرضعًا، فغمرها الفرح وأرسلت فأتت بها وبه وشاهدت الرضاع، وتثبتت بنفسها من الأمر، ثم قالت لأمه: أقيمى هنا فى القصر لأجل أن ترضعى ابنى هذا وكل أمورك مكفولة، وستجدين الراحة، وستنعمين بما يتنعم به ساكنو القصر. فتذكرت أم موسى وعد الله لها.

﴿إنا رادّوه إليك﴾.

وعلمت أن الله لا يخلف وعده، فقالت فى غير تردد ولا خوف. لا أستطيع أن أدع ولدى، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى

بيتى فيكون معى لا آلوه خيرا، ولما رأت امرأة فرعون تصميم أم موسى سمحت لها بأخذه فرجعت به إلى بيتها من يومها وتحقق بذلك وعد الله لها.

﴿إنا رادّوه إليك﴾.

مكث موسى مع أمه مدة الرضاع، وأنبته الله نباتًا حسنًا، وحفظه من كل سوء، فلما انقضت المدة التى كانت امرأة فرعون تتعجل نهايتها حُدِّد يوم لعودته إلى القصر، وأعلنت امرأة فرعون يوم عودته، واستعدت لذلك، واستعد من حولها، وكان يومًا مليئًا بالزينة ومواكب المهنئين.

أما ما حدث بعد ذلك فى سنوات الطفولة وأوائل الشباب فإن التاريخ يصمت عنه، وما من شك فى أنه ربى أحسن ما تكون التربية، ويصمت القرآن أيضا عن هذه الفترة ثم يفاجئنا به وقد بلغ أشده واستوى فيقول:

﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزى المحسنين﴾ (القصص آية: ١٤).

ونقف قليلًا عند قوله تعالى: ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ لأنها ترشد إلى أن الله كان قد آتاه حكمًا وعلمًا. فإن موسى عليه السلام قد قدم ما جعله جديرًا بذلك وهو أنه كان من المحسنين، كان ينصر المظلوم، ويعين العاجز، ويساعد من كان فى حاجة إلى عونه وكان سريع الرجوع إلى الله: أى أنه كان حسن الصلة بالله، وكان حسن الصلة بأفراد المجتمع ومن كان كذلك فإن الله سبحانه يثيبه خير مثوبة، يقول سبحانه:

﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ (يونس آية: ٢٦).

ويقول سبحانه: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل آية: ١٢٨).

إنه سبحانه مع المحسنين بالرعاية والتوفيق، ومعهم بالعناية والهداية، ومعهم بالرحمة، وإن رحمة الله قريب من المحسنين.

ومكث موسى عليه السلام فى القصر ماشاء الله أن يمكث، ثم اقتضت الحكمة الإلهية أن يغادر القصر وأن يغادر مصر كلها فارًّا خائفًا.

أما السر فى ذلك، فإنه دخل المدينة فى وقت هدأ فيه السير، وانقطع السائرون، واستكنَّ كل إنسان فى بيته يطلب الراحة والهدوء، وإذا به يجد رجلين يقتتلان: أحدهما من شيعته، والآخر من أعدائه، وكان موسى معروفًا لدى جمهور الشعب، فأخذ الذى من شيعته، يستغيث به ويستنصره وقرب منهما موسى ليفض النزاع ويحسم الخصومة، وإذا به عن غير قصد يلطم الذى هو عدو له لطمة لم يكن يقصد أن تكون قاتلة - وحاشا لنبى أن يقصد ذلك - فإذا فيها القضاء عليه وإذا به يخر ميِّتًا.

وما أن حدث هذا حتى رجع موسى إلى الله بالندم، والتوبة الخالصة النصوح، والاستغفار الخارج من القلب فى أسف شديد على ما حدث.

ويذكر الله سبحانه ذلك على لسان موسى الذى يقول:

﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ (القصص آية: ١٥، ١٦).

ثم عاهد الله عهدًا مؤكدًا فيما يستقبل من حياة قائلًا:

﴿رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرًا للمجرمين﴾ (القصص آية: ١٧).

وأيقن موسى أنه لابد من القصاص منه، وأن الأمر سيعرف: إن قريبًا وإن بعيدًا، وأنه لا مفر من مغادرة مصر.

أخذ موسى يفكر فى أمر القصاص وأنه لا مفر منه، وسار فى هم، وبات فى ضيق، وأصبح خائفًا يترقب، لقد أصبح حذرًا مرتابًا.

وإذا به يفاجأ مرة أخرى بالذى استنصره بالأمس يطلب منه العون والنجدة ويستصرخه من جديد، ولم يكن ضمير موسى قد هدأ بعد من حادث الأمس، فتطلع إليه فى غضب، ونظر إليه فى استياء، وقال له فى تأنيب:

﴿إنك لغوى مبين﴾ (القصص آية: ١٨).

وأراد أن يعاقبه على كثرة اشتباكه بالآخرين من أجل أن يلتزم السكينة، وأن يثوب إلى حسن المعاملة، وإذا بالرجل يقول:

﴿يا موسى، أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جبارًا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ (القصص آية: ١٩).

وهكذا أفشى الرجل سر القتيل، وهذا الرجل يمثل صنفًا من الناس عربيدًا جبانًا، لا يحفظ جميلاً، ولا يمثل الاتزان.

وبينما كان موسى عليه السلام مأخوذًا بالمفاجأة التى ما كان ينتظرها من إفشاء سره، إذا به يرى رجلاً آتياً من أقصى المدينة يسعى متجهًا إلى موسى قائلاً:

﴿يا موسى، إن الملأ - أى الرؤساء - يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إنى لك من الناصحين﴾ (القصص آية: ٢٠).

وأصبح الأمر بالنسبة لموسى واضح المعالم:

لا مفر من الخروج من مصر، إلى أين؟ بم يسافر؟ ما الطريق؟ إنه لا يدرى.

ولكنه خرج من مصر: خرج خائفًا يترقب، متجهًا إلى الله تعالى فى تضرع واستغاثة، قائلاً:

﴿رب نجنى من القوم الظالمين﴾ (القصص آية: ٢١).

كانت تتمثل فى موسى إذ ذاك الحاجة إلى عون الله والاضطرار إلى

رحمته، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (النمل: ٦٢).

يقول أبو العباس المرسى: الصوفى فى اضطرار دائم، إنه دائمًا مستشعر اضطراره إلى الله، من أجل ذلك فهو مستجاب الدعوة.

وما من شك فى أن الالتجاء إلى الله عن طريق العبودية سبيل صادق فى الاستجابة.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ (الزمر آية: ٣٦).

من هو عبده؟

إنه الذى لايغفل عن العبودية الحقة التى تستجيب للأمر، وتنهى عن المنهيات، وتكون دائمًا فى إطار الطاعة.

كان موسى مضطرا فاستجاب الله نداءه ونجّاه من القوم الظالمين.

أخذ موسى سمته نحو مدين - بالسؤال أوبالحدس وقد كان يسمع عنها وما كان يدرى الطريق إليها، وتضرع إلى الله فى ابتداء طريقه قائلاً:

﴿عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل﴾ (القصص آية: ٢٢).

إنه مضطر أيضًا - وما من شك فى ذلك - واستجاب الله دعاءه، فهداه إلى هدفه.

ووصل مدين، وحينما دخلها وجد جمعًا كثيرًا من الرعاة يسقون أنعامهم

عند بئر مدين، وأخذ ينظر إلى الرعاة فوقع بصره على فتاتين منعزلتين تقريبًا، وتمنعان أغنامهما عن السقيا، وسألهما عن أمرهما فقالتا:

﴿لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾ (القصص آية: ٢٣).

أى لا نسقى أنعامنا حتى ينتهى الرعاة من سقى أنعامهم، وذلك لضعفنا عن الاقتحام فى الزحام.

ويبدو أنهما توقعتا منه سؤالاً عن رجال الأسرة فقالتا:

﴿وأبونا شيخ كبير﴾ (القصص آية: ٢٣).

واستولت المروءة على موسى، هذه المروءة التى هى من شيمة المؤمنين والتى تلزم الإنسان نجدة المحتاج.

﴿فسقى لهما﴾ (القصص آية: ٢٤).

وكان موسى مجهدًا، وكان بالمكان شجرة لها ظل ظليل، فتولى إليها، وجلس ملتجئًا إلى الله مرة أخرى قائلاً:

﴿رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير﴾ (القصص آية: ٢٤)

أخرج ابن مردويه - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لما سقى موسى عليه السلام للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال: ﴿رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير﴾، إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر.

وعن ابن عباس قال:

لقد قال موسى عليه السلام: ﴿رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير﴾ وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرة، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع.

وفى رواية أخرى عنه أنه عليه السلام سأل فلقًا من الخبز يشد بها صلبه من الجوع. وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين.

ومن أجمل ما روى فى ذلك ما قاله الحسن رضى الله عنه من أنه عليه السلام سأل العلم والحكمة.

ومهما يكن من شىء، فإن موسى عليه السلام كان يلجأ إلى الله فى كل أموره، ولقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول:

«من لم يسأل الله يغضب عليه» (رواه ابن ماجه).

وينصح بأن يسأل الإنسان الله فى اليسير من الأمور والعظيم منها.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

«رواه الترمذى وقال: حسن صحيح».

جلس موسى فى الظل، وما لبث أن جاءته إحدى الفتاتين تمشى على استحياء وقالت له:

﴿إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ (القصص آية: ٢٥).

يقول ابن كثير:

أى جزاء سقيك، على أن ما مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن ما يستحق عليه الأجر فعله، لا ما سقاه، إذ هو الماء المباح، وأسندت الدعوة إلى أبيها، وعللتها بالجزاء، لئلا يوهم كلامها ريبة. وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى.

روى أنه عليه السلام أجابها فقام معها فقال لها:

«امشى خلفى، وانعتى لى الطريق، فإنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك، ففعلت».

يقول الله تعالى:

﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ (القصص آية: ٢٥).

ومن أجمل ما روى عندما التقى موسى بالشيخ، ما أخرجه ابن عسكر عن أبى حازم قال:

لما دخل موسى على شعيب عليهما السلام إذ هو بالعشاء، فقال له شعيب:

كُلْ..

قال موسى أعوذ بالله تعالى.

قال: ولم؟ ألست بجائع؟

قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئًا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبًا.

قال: لا والله، ولكنها عادتى وعادة آبائى، نقرى الضيف، ونطعم الطعام فجلسَ موسى عليه السلام، فأكل.

ثم يقول الله تعالى متابعًا النبأ:

﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ (القصص آية: ٢٦).

يقول الإمام الألوسى:

«إن كلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه، لأنه إذا اجتمعت الخصلتان - أعنى الكفاية والأمانة - فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك».

وقال عمرو بن عباس، وشريح القاضى، وأبو مالك، وقتادة، ومحمد ابن اسحاق وغير واحد، لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟

فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال:

كونى من ورائى، فإذا اختلفت الطريق فاحذفى لى بعصاة أعلم بها كيف الطريق.

ورأى شعيب عليه السلام شابًّا قويًّا يبدو عليه القوة، ويبدو عليه الأمانة، وفى وجهه نور، وفى سمته وقار، فأحب أن يربطه به برابطة وثيقة، فقال له:

﴿إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج. فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين﴾ (القصص: ٢٧).

وأجاب موسى عليه السلام:

﴿ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل﴾ (القصص: ٢٨).

يقول الإمام البخارى:

...

«حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قال:

«سألنى يهودى من أهل الحيرة: أى الأجلين قضى موسى؟»

فقلت: لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال:

قضى أكثرهما وأطيبهما، أن رسول الله إذا قال فعل.

وروى ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل:

أى الأجلين قضى موسى؟

قال: أوفاهما وأتمهما.

قضى موسى الأجل، وأحب أن يغادر مدين، فقد اشتاق موسى إلى مسقط رأسه، وإلى أهله: إنه الحنين إلى الأهل والوطن، وأحب زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه، فلما صح عزمه أمر زوجته أن تسأل أباها أن يمنحها من ماله ما يعيشون به، فأعطاها قدرًا كبيرًا من غنمه.

وأخذ موسى طريقه - ومعه غنمه وأهله - واتخذ من أجل رعاية الغنم عصًا هى عصاه المشهورة، وسيأتى ذكرها.

لقد أخذ طريقه فى ليلة شاتية باردة، وأراد أن يوقد نارًا ليستدفئ هو وأهله، فلم يتمكن من ذلك بسبب الشتاء.

وأخذ يتلفت هنا وهناك.

﴿آنس من جانب الطور نارًا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى

آتيكم منها بخبر أوجذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ (القصص:٢٩).

وحينما وصل إلى المكان الذى آنس فيه نارًا إذا به يسمع النداء المدوى فى الجو، والمدوى فى أعماق نفسه، يسمعه:

﴿من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة﴾. (القصص: ٣٠)

قائلًا له:

﴿يا موسى إنى أنا الله رب العالمين﴾ (القصص: ٣٠)

ولقد ذكر الله ذلك فى سور متعددة، واختلف التعبير من سورة إلى سورة، ومن ذلك:

﴿فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ (النمل: ٨، ٩)

وقال تعالى فى سورة طه:

﴿فلما أتاها نودى يا موسى، إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾. (طه: ١١ - ١٦).

لقد كانت المفاجأة السعيدة الكبرى لموسى، وكانت مفاجأة لم يكن موسى عليه السلام يتوقعها.

وهل يتوقع الأنبياء النبوة؟

إن الله يصطفيهم للنبوة منذ الأزل، ثم يفاجئهم فى الوقت الذى تقتضى حكمته أن يبعثهم فيه.

وما كان الذى رآه موسى نارا وإنما كان نورا إنه النور الذى يراه كل من يتجلى الله عليه برحمته، يقول صاحب كتاب: «لطائف الإشارات»:

ويقال: ألاح له نارًا، ثم لوح له نورًا، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصود النار ولا النور، وإنما سماع نداء:

﴿إنى أنا الله رب العالمين﴾.

ويقول ابن كثير فى ذلك:

إن الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس، وتنزه عن مماثلة المخلوقات - فى ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله - سبحانه.

ويقول الله سبحانه عن هذه الحادثة المشرقة:

﴿فلما أتاها نودى: يا موسى، إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إننى أنا الله لا إله

إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى.. إلى قوله: فتردى﴾.

ونحب أن نتحدث عن: ﴿فاخلع نعليك﴾:

انه خلع حقيقى للنعلين، ولكن الكلمة تشير إلى: «اخلع الأدنى».

وكلما خلع الإنسان الأدنى كان هناك أيضًا أدنى فيخلعه، وهكذا يكون الإنسان فى سمو مستمر، وفى ترق دائم - وشعار الإسلام:

من استوى يوماه فهو مغبون، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان - وتشير أيضًا إلى:

تبرأ من نفسك الأمارة بالسوء، ومن الشيطان الذى يوسوس بالسوء. واخلع نعليك تشير على وجه العموم إلى:

اخلع الرجس، اخلع كل ما هو ملوث بالرياء، وسر فى طريق الله على طهر ونقاء: مادى ونفسى، فإن طريق الله هو طريق الطهر والصفاء.

ثم خاطب الله سبحانه موسى عليه السلام قائلاً:

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ (طه: ١٧)

فقال موسى:

﴿هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى﴾ (طه: ١٨)

وأمره الله سبحانه بإلقائها، فألقاها موسى، وإذا بها حية تسعى، فلما رآها موسى تهتز كأنها جان ولّى مدبرًا، وإذا به يسمع النداء الإلهى:

﴿يا موسى، أقبل ولا تخف، إنك من الآمنين﴾ (القصص: ٣١)

وهل يخاف من اصطفاه الله، أو اجتباه، أو كان عنه راضيًا؟

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يونس: ٦٢)

وأولياء الله هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ (يونس: ٦٣)

فإذا ما كانوا كذلك، فإن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

إن الله سبحانه وتعالى يرعاهم ويحميهم، وهم آمنون فى الدنيا، وآمنون فى الآخرة.

ورجع موسى، وأعاد الله العصا سيرتها الأولى.

ثم أمر الله تعالى موسى أن يدخل يده فى جيبه ثم يخرجها، ففعل موسى، وإذا به يرى يده بيضاء من غير سوء.

وما كانت هاتان الآيتان من الله لموسى إلا تمهيدًا لبعثه ورسالته: إنهما برهانان على صدقه:

﴿اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك

جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قومًا فاسقين﴾ (القصص: ٣٢)

وأمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون:

﴿إنه طغى﴾

ومن رسالة موسى كما هو من رسالات الأنبياء، تحذير الطغاة من غضب الله ﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾ (العلق: ٦ - ٧)

أى أن الإنسان إذا كان فى صحة، وفى ثراء، وفى حكم - يسيرًا كان هذا الحكم أو كبيرًا، فإنه ينزع للطغيان، ويستخف قومه فلا يبالى بهم، ويستعبدهم فيطيعونه، ويذلون له خوفًا منه ورهبة.

ورسالات الأنبياء تحذر من ذلك وتعلن: إن الله يمهل ولا يهمل.

وإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

ورأى موسى أنه سيقابل طاغية مستبدًّا، استخف قومه فأطاعوه فتضرع إلى الله قائلًا:

﴿رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى، واجعل لى وزيرًا من أهلى، هارون أخى، اشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى، كى نسبحك كثيرًا، ونذكرك كثيرًا، إنك كنت بنا بصيرًا﴾. (طه آية: ٢٥ - ٣٥)

واستعطفه أيضًا قائلًا:

﴿رب إنى قتلت منهم نفسًا فأخاف أن يقتلون، وأخى هارون هو أفصح منى لسانًا فأرسله معى ردءًا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون﴾. (القصص: ٣٣ - ٣٤)

وأهل الله وأولياؤه يلجأون إليه فى كل أمر يهمهم، إنهم يسألونه ويلجأون إليه فى اليسير من أمرهم وفى العظيم منه، يقول صلى الله عليه وسلم:

«ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع». (رواه الترمذى وابن حبان عن أنس).

واستجاب الله دعاءه قائلًا:

﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ (القصص: ٣٥)

ومن طريف ما يروى فى ذلك أن السيدة عائشة رضى الله عنها سمعت رجلًا يقول لأناس وهم سائرون فى طريق الحج: أى أخ آمن على أخيه؟

فسكت القوم، فقالت عائشة لمن هم حول هودجها:

هو موسى بن عمران حين شفع فى أخيه هارون فأوحى إليه، قال الله تعالى:

﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا﴾ (مريم: ٥٣)

واجتمع موسى بأخيه، وصمما على أن يؤديا الرسالة فى صورة من العزم المصمم، ولكن صورة فرعون كانت واضحة فى نفسيهما:

إنها صورة الباطش الذى لا يبالى، فاتجها إلى الله فى تواضع وانكسار، قائلين:

﴿ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾، فقال سبحانه وتعالى:

﴿لا تخافا، إننى معكما أسمع وأرى﴾ (طه: ٤٥ - ٤٦).

ونصحهما الله سبحانه وتعالى قائلاً:

﴿فقولا له قولاً ليّنًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤)

والواقع: أن هذه النصيحة ليست لموسى وحده، وإنما هى لكل داع إلى الله سبحانه.

إن الداعى حينما يغلظ فى القول فإنما يرضى بذلك نزعة الكبرياء عنده، وأن بعض الدعاة يسير على أساس من هذه النزعة.

إن فيه بعضًا من صفات إبليس فى كبريائه، وإن لم يشعر بذلك، وأنه لمن البديهة بمكان أنه بمقدار ما عند الواعظ من حدة يكون غير أهل للوعظ، وبمقدار ما عنده من حدة يكون عنده من كبرياء.

ومن طريف ما يروى فى ذلك أن واعظًا وعظ المأمون وعنف له فى

القول، فقال: يا رجل، ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأمره بالرفق، قال تعالى:

﴿فقولا له قولا لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤)

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى قواعد الوعظ، وبين المنهج الذى يجب أن يلتزم به الواعظ، وأولى هذه القواعد ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها فى أمره لرسوله:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (يوسف: ١٠٨)

الدعوة على بصيرة: أى على علم، ولا مناص من أن يكون الداعى عالمًا حتى لا يوقع جمهورًا من الناس فى الضلال.

ولقد كان من شيم علمائنا الأجلاء أنه إذا سئل أحدهم فيما لا يعلم قال:

«لا أدرى».

وأما القاعدة الثانية، فهى ما عبر الله عنه بقوله:

﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾. (الأحزاب: ٣٩).

وهذه قاعدة جليلة: إن من يبلغ رسالات الله لا ينبغى أن يفعل ذلك

إلا إذا كان قلبه عامرًا بخشيته، مليئًا بهيبته.

أما القاعدة الثالثة للواعظ فهى:

﴿فقولا له قولا لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤)

والقاعدة الرابعة هى:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ (النحل: ١٢٥)

وهى آية تجمع من الآداب الكثير.

* * *

ما هى رسالة موسى إلى فرعون؟

إنها: ﴿أن أرسل معنا بنى إسرائيل﴾ (الشعراء: ١٧)

إن موسى عليه السلام لم يكن صاحب دعوة عامة، إنه لم يرسل إلى المصريين، وإلا لمكث فى مصر يدعو إلى الله.

لقد أساء اليهود إلى مصر، وعانوا فيها فسادًا على طريقتهم فى كل مكان، وفى كل زمن، فأخذ فرعون فى قسوة قاسية، وفى عنف عنيف ينكل بهم: يذبح أبناءهم، ويستحيى نساءهم.

وربما كان هذا العنف بسبب مؤامرة - وهم أصحاب المؤامرات - من

مؤامراتهم لقلب نظام الحكم، وربما أخذوا يسيطرون على اقتصاد البلد، ويمتصون دماء أهلها، وربما حاولوا السيطرة على مصر وأخذ الحكم فيها، وربما..

ونكل بهم فرعون فى نوع من الجبروت، وكانت مهمة موسى عليه السلام إنقاذهم.

... ان: ﴿أن أرسل معنا بنى إسرائيل﴾ رسالة واضحة.

ويقول الله تعالى:

﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾ (طه: ٤٢).

وما من شك فى أن موسى عليه السلام كان يسعده أن يؤمن فرعون، ومع ذلك فإن رسالته كانت محددة ببنى إسرائيل.

ولما قال موسى وهارون لفرعون: ﴿إنا رسولا ربك﴾ دار حديث بين فرعون وموسى فى موضوع الإلهية، قال فرعون:

﴿فمن ربكما ياموسى﴾.

﴿قال: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ (طه: ٤٩-٥٠).

أى أن الله سبحانه هو الذى خلق كل ما فى الكون، وهو كل شىء فى الكون إلى الغاية من وجوده.

ويريد موسى بذلك أنه سبحانه فعل ما لا تقدر على فعله.

وعاد فرعون يسأل: إذا كان ربك بهذه المثابة من الوضوح والجلاء، فما بال القرون الأولى التى لم تهتد إليه؟

وقال موسى: ﴿علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى﴾ (طه: ٥٢).

وسيجازى كلًّا بعمله، ثم أخذ موسى يتحدث عن الله وعظمته وآلائه:

﴿الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلًا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى﴾ (طه: ٥٣ - ٥٤)

ويقص الله سبحانه أيضا حوارًا طريفًا بشكله وموضوعه جرى بين فرعون وموسى عليه السلام.

لقد قال موسى لفرعون:

﴿إنا رسول رب العالمين﴾ (الشعراء: ١٦).

فقال فرعون:

﴿وما رب العالمين؟﴾ (الشعراء: ٢٣).

وهذا السؤال الذى بدأه فرعون: بـ «وما» بدل أن يبدأه بـ «ومن» يدل على أن فكرة الألوهية كانت مختلطة مشوشة عند فرعون.

ولقد مر على الإنسانية أزمنة عبدت فيها الكواكب، وأزمنة عبدت فيها الحيوانات، وقدست البقر والعجل وغيرها، وأزمنة عبدت فيها الأصنام.

ويدل سؤال فرعون على أنه لم يكن على علم بالحق.

وأجاب موسى عليه السلام:

﴿رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ (الشعراء: ٢٤).

ويتجه فرعون إلى من حوله متعجبًا من قول موسى قائلاً:

﴿ألا تستمعون﴾ (الشعراء: ٢٥).

ومع أنه انصرف فى خطابه عن موسى فإن موسى لم يمهله وإنما قال:

﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ (الشعراء: ٢٦).

ولجأ فرعون إلى السفه فقال:

﴿إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾ (الشعراء: ٢٧).

ولم يثن ذلك السفه موسى عليه السلام عن الاستمرار فى التعريف بالله، فقال:

﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ (الشعراء: ٢٨).

فقال فرعون:

﴿لئن اتخذت إلهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين﴾ (الشعراء: ٢٩).

فقال موسى:

﴿أولو جئتك بشيء مبين!﴾ (الشعراء: ٣٠).

قال فرعون:

﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾ (الشعراء: ٣١).

وأتاه موسى بالمعجزة التى بهرت الناس، وآمن من أجلها السحرة وهى العصا التى تلقفت السحر، وكشفت الباطل، فهل آمن؟

* * *

وملاحظة أخرى فيما يتصل بقصة موسى وهارون:

إن الله سبحانه يقول:

﴿اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى﴾ (طه: ٤٢).

فيقرن الأمر بالدعوة إلى الله بالأمر بالذكر.

والله سبحانه يحث دائمًا على الذكر فى كل لحظة، ومن ذكر الله فى الرخاء ذكره الله فى الشدة.

وان من أنواع الذكر التى تنجى فى الشدائد تسبيح الله سبحانه، ولقد

قال سبحانه فى شأن ذى النون حينما ابتلعه الحوت:

﴿فلولا أنه كان من المسبحين، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات: ١٤٣ - ١٤٤).

وقال فى شأن أصحاب الجنة حينما طاف عليها طائف من ربك:

﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ (القلم: ٢٨).

أما الاستغفار فإنه أمان من العذاب:

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ (الأنفال: ٣٣).

وهو من عوامل السعة فى الرزق:

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

ويقول الله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾ (الأنفال: ٤٥).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه:

«إن عبدى -كل عبدى- الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه».

وطلب فرعون من موسى آيات تثبت رسالته:

﴿فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين﴾ (الشعراء: ٣٢ - ٣٣).

وظن فرعون أن ذلك سحر، وأراد أن يجابه السحر فيما زعم بسحر مثله، فجمع كبار السحرة، وكانت حفلة المباراة التى حضرها فرعون وكبار رجال الدولة، وبذل السحرة ما استطاعوا.

لقد بذلوا جهد طاقتهم، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، قائلين:

﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ (الشعراء: ٤٤).

فلما ألقوا حبالهم وعصيهم خيل إلى موسى أنها تسعى، فخاف أن يغتر الناس بسحرهم، وأن يكون هناك مؤامرة لا تمكنه من إلقاء عصاه، فسمع النداء الإلهى: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ (طه: ٦٨ - ٦٩).

فألقى موسى عصاه قائلاً:

﴿ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ (يونس: ٨١ - ٨٢).

وإذا بعصا موسى تلقف ما يأفكون.

وذهل الناس حينما رأوا عصا موسى حية تلتهم الحيات، ولكن أشد الناس ذهولاً، وأكثرهم دهشة، كانوا هم السحرة.

لقد رأوا شيئًا ما هو بالسحر ولا بالشعوذة، رأوا شيئًا لا زور فيه ولا ضلال، رأوا ما لا يملك البشر الإتيان بمثله، فأعلنوا فى عزم وإصرار على الملأ فى وضح النهار:

﴿آمنا برب هرون وموسى﴾ (طه: ٧٠).

أعلنوا ذلك بعد أن خروا لله ساجدين: حمدًا وشكرًا، على أن هداهم للإيمان، وأبان لهم سبيل الحق، فكانت المفاجأة التى لم يكن ينتظرها أحد، كانت مفاجأة لفرعون وملئه، وكانت مفاجأة للشعب، وكانت مظهرًا كريمًا للشجاعة الأدبية.

أرأيت إلى قوم مستضعفين - وما كان السحرة بالنسبة لفرعون إلا مستضعفين - يقفون فجأة فى وجه طاغية يعلنون الحق الذى يدينون؟

إنهم يعلنون الحق مع علمهم بأنه سينكل بهم.

وأعلن الطاغية حكمه:

﴿آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ (طه: ٧١).

والطاغية يحب أن يشارك الله فى صفاته، وهو هنا يوجب الاستئذان حتى

فى مسائل الإيمان، وفيما تخفى السرائر.

ثم اتهمهم بالتآمر: أى اتهمهم بالخيانة العظمى قائلاً:

﴿إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾ (الأعراف: ١٢٣).

وقال عن موسى عليه السلام:

إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فتآمرتم معه على إضلال العامة وانصرفتم عن الملك إلى موسى وهارون، ولابد من العقاب.

أما ما هو العقاب؟.. إنه:

﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابًا وأبقى﴾ (طه: ٧١).

وأجاب السحرة فى قوة لا تلين، قالوا:

لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات الواضحة، ولن نؤثرك على الذى فطرنا.

لقد تبين لنا الحق فاتبعناه، وآمنا بالله الذى فطرنا، فافعل ما أردت، واحكم فينا بما تهوى، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا وهى فانية، متاعها قليل، وأيامها محدودة:

﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله

خير وأبقى، إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾ (طه: ٧٣ - ٧٦).

لقد أنار الإيمان قلوبهم، وعمرت التقوى صدورهم ورأوا الحق واضحًا فاستمسكوا به، وتجلى عليهم الله بنور الإيمان فانقلبوا فى لحظات إلى رجال آخرين: إلى رجال مؤمنين، والمؤمن الحق يقول:

﴿إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين﴾ (الأعراف: ١٢٥ - ١٢٦).

قال عكرمة والأوزاعى وغيرهما رضى الله عنهم:

لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم فى الجنة تهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قص علينا أمر سحرة فرعون فإن المسلمين قد حقق الكثير منهم أمثلة كريمة لإعلان إيمانه، ولا يبالون بما يصادفونه من عذاب وتنكيل.

أرأيت إلى بلال رضى الله عنه يعذب وينكل به، وهو لا يفتر عن قول أحد. أحد.

يقول ابن كثير فى سيرته:

وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له:

«لا والله، لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى»

فيقول وهو فى ذلك:

أحد أحد.

قال ابن اسحاق: فحدثنى هشام بن عروة عن أبيه قال:

كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب لذلك، وهو يقول: أحد. أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بنى جمح فيقول:

أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانًا (أى لا تخذن قبره منسكا).

وهل قرأت تاريخ ياسر وسمية وعمار؟. هذه الأسرة التى أكرمها الله بالإيمان فأعلنته وأوذيت فى الله، فلم يثنها العذاب عن إيمانها.

قال ابن أسحاق:

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل

obeikandl.com

بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم، فيقول - فيما بلغنى:

«صبرا آل ياسر موعدكم الجنة».

وقد روى البيهقى، عن الحاكم، عن ابراهيم بن عصمة العدل، حدثنا السرى بن خزيمة، حدثنا مسلم بن ابراهيم، حدثنا هشام بن أبى عبيد الله، عن أبى الزبير، عن جابر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله يعذبون فقال:

«أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، فأما أمه فيقتلونها فتأبى إلا الإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن مجاهد قال:

«أول شهيد كان فى أول الإسلام استشهد أم عمار سمية، طعنها أبو جهل بحربة فى قلبها».

وإمام المسلمين فى الشجاعة الأدبية هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومواقفه الكثيرة فى ذلك مشهورة، وقد ذكرنا بعضًا منها فى كتابنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

أراد الله بالسحرة خيرًا فآمنوا، ولكن الملأ من قوم فرعون - أى

كبراء القوم وسادتهم - وقد رأوا أن ما يعظ به موسى لا يتسق وما هم فيه من الترف والشهوات أخذوا يحرضون فرعون على التنكيل به، وهذا شأن كل المترفين فى كل زمان ومكان.

إن شهواتهم تسيطر عليهم، ومن أجل ذلك يتقربون للسلطان، يداهنونه ويتملقونه، وينحرفون به عن طريق الاستقامة، وذلك ليستمروا غارقين فى شهواتهم وملذاتهم، وهكذا سارت الأمور مع فرعون فى موقفه من موسى:

لقد صوروه بأنه مفسد فى الأرض، فقال فرعون - وقد أوغروا صدره على موسى: **﴿ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾** (غافر: ٢٦).

وهكذا انقلبت الامور مزيفة معكوسة.

ولكن ماذا كان موقف موسى؟.

لقد فعل ما يفعل الرسل والأنبياء والصالحون: إنهم يلجأون إلى الله، فهو دائمًا فى ذهنهم وقلبهم، لا يغفلون عنه، ولا يغيب عنهم.

لقد قال موسى فى مواجهة ذلك:

﴿إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾. (غافر: ٢٧).

ولكن العالم لا يخلو من عناصر الخير، وقد يوجد الخير فى بعض الأشخاص فى الوسط الذى يغص بالشر والإثم ، لقد كان فى الوسط الفرعونى رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وكان هذا المؤمن منطقيًا فى تفكيره، متزنًا فى قوله وسلوكه، فقال لهم فى منطق واضح هذه الكلمات الحكيمة:

﴿أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبًا فعليه كذبه وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾. (غافر: ٢٨ - ٢٩).

وفى هذا الكلام قضايا:

إن موسى يقول: ربى الله. يقولها فى صدق، مضحيًا بنفسه فى سبيلها، ومن كان كذلك فإنه أمين لا يفسد فى الأرض بل يصلح فيها.

وصفات المؤمنين معروفة، منها أنهم:

﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾. (التوبة: ١١٢).

وهؤلاء جدير بأصحاب السلطان أن يقربوهم وأن يستشيروهم، فإنهم يشيرون بالخير وبما يرضى الله، فيقربون أصحاب السلطان من الله، وإذا

ما تقرب أصحاب السلطان من الله فإنه يرعاهم ويوفقهم ويتولاهم، فيدوم سلطانهم، وتسعد رعيتهم.

أما القضية الثانية فهى:

﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾.

إن دعواه التى يدعو بها أيدها بالبراهين، إنه لم يلق كلامًا لا يؤيده.

لقد برهن عليه فهو إذن رجل صادق.

والقضية الثالثة هى:

﴿وإن يك كاذبًا فعليه كذبه﴾.

إن هذه القضية يؤيدها الوحى، ويؤيدها الواقع. إنه يقال: «على الباغى تدور الدوائر».. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«والذى نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» (رواه ابن أبى حاتم).

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾. (الانفال: ٥١).

أى أن المصائب التى تصيب الإنسان إنما هى من صنعه هو، إنه إن كذب

فعليه كذبه، وإن سرق فعليه سرقته، وإن خان فعليه خيانته، وهكذا .. وهذا هو ما تعنيه هذه القضية.

أما القضية الرابعة فهى:

﴿وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذى يعدكم﴾. (غافر: ٢٧).

إن الناصح إذا كان رسولاً، أو كان مجرد مؤمن مخلص، يوجه دائمًا إلى طريق الخير، فإذا خالفه قومه فهم يتجهون إلى طريق الشر فيصيبهم بعض ما أنذرهم به، وهذا مبدأ إلهى.

أما القضية الخامسة فهى:

﴿إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب﴾.

وهذه القضية هى نفس القضية التى قالها موسى عليه السلام للسحرة حينما وعظهم قائلاً:

﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾. (طه: ٦١).

وهى نفس القضية التى قالها موسى وهارون عليهما السلام:

﴿إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾. (طه: ٤٨).

إن الله وضح الخير والشر، ومن الخير الاقتصاد، ومن الخير الصدق،

فإذا ترك الإنسان الاقتصاد والصدق فإنه يكون قد انصرف عن طريق الهدى إلى طريق الضلال.

وهذه القضايا كلها إنما تندرج تحت قانون عام هو قوله تعالى:

﴿من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾. (فصلت : ٤٦).

ثم قال مؤمن آل فرعون نصيحة فى غاية النفاسة يجب ألا يغفل عنها أى صاحب سلطان: صغر سلطانه أو كبر:

﴿ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾.

وانظر معى أيها القارئ الكريم فى تعبير هذا المؤمن، إنه قال فى الملك (لكم الملك) ثم قال فى العذاب ينال الأمة: «فمن ينصرنا؟».

وفى هذا التعبير دقة دقيقة:

إن الذين يفسدون ويظلمون هم فئة قليلة نسبيًّا، وهم هنا آل فرعون، ولكن العذاب إذا نزل فإنه يعم: «لكم» «ينصرنا».

إن «لكم» خاص، وإن «ينصرنا» عام، ومن هنا كان حديث السفينة: روى البخارى بسنده، عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

وروى الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال:

يأيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية:

﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم﴾. وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان).

إن الإنسان الذى يمتلئ قلبه بالخير لابد أن يبشر به، وإن مسئوليته لاتنتهى إلا إذا قام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: يفعل ذلك بحسب مكانته فى المجتمع وسلطته فيه.

وعند هذا تدخل فرعون قائلاً:

﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾. (غافر: ٢٩).

فقال الذى آمن مستدركًا:

﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب. ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾. (غافر: ٣٨-٤٤).

أما النتيجة لموقفه هذا فهى:

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾.

وأما النتيجة بالنسبة لآل فرعون فهى:

﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾.

ويبدو أن فرعون وإن تظاهر فى الملأ بالقسوة، فإنه وصل إلى قلبه بعض

الخوف من أن يسىء إلى موسى فأرجأ العقاب وترك موسى حرا طليقًا إلى أن يتروى فى الأمر.

وقال تعالى:

﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقًا فى البحر يبسا﴾. طه: ٧٧).

وما من شك فى أن موسى مكث عدة أيام يدبر أمر الإسراء: أى خروج اليهود من مصر ليلًا خفية.

ولكن من البديهى أنه أينما سار بهم موسى سيدركهم فرعون بجيشه، ولكن عناية الله التى تتولى الصالحين أدركته فقال لموسى فى الوحى نفسه:

﴿فاضرب لهم طريقًا فى البحر يبسًا﴾.

أى أنه سيستطيع فى أسلوب معجز أن يجعل لهم طريقًا فى البحر يعبرونه: طريقًا فى الماء يكون طريقًا يبسًا، أى أنه سيسير فى البحر على اليبس ثم يفصل البحر بين هؤلاء وهؤلاء، ثم قال سبحانه:

﴿لاتخاف دركًا ولا تخشى﴾.

وسار موسى مطمئنًا هادئًا فى رعاية الله.

وجاء النبأ إلى فرعون فاتبعهم بجنوده، وأوشك أن يصل إليهم ورآه قوم موسى فقالوا:

﴿إنا لمدركون﴾.

فقال موسى وهو على علم بالتصريف الإلهى:

﴿كلا، إن معى ربى سيهدين﴾.

وإذا تأمل القارئ فى كلمة موسى فإنه يرى أنه قال: «معى» ولم يقل «معنا»، والمعنى واضح:

إن الله معه، وهو تخصيص لا يحتمل التعميم.

ولعل القارئ يذكر فى هذا المقام ما قاله الله تعالى فى هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان معه أبو بكر رضى الله عنه:

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾. (التوبة: ٤٠).

إنه هنا يقول «معنا»، إنه سبحانه مع كل مسلم صادق فى إسلامه.

وأدركهم فرعون فعلًا، ويقول القرآن الكريم معبرًا عن ذلك:

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى﴾.

ولكن فرعون فى طغيانه وجبروته حينما أدركه الغرق عاد مؤمنًا وقال:

﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾. (يونس: ٩٠).

وكان مثله فى ذلك مثل الذين يقول الله تعالى عنهم:

﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبًا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ (الزمر: ٨).

ويقول:

﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ (الزمر:٤٩).

ويقول:

﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾. (يونس: ٢٢-٢٣).

وكان رد الله سبحانه:

﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فاليوم ننجيك ببدنك

لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾. (يونس: ٩١ - ٩٢).

ونجا موسى ومن معه ووصلوا إلى الشاطئ الثانى، وبمجرد أن وصلوا إلى الشاطئ الثانى وانتشروا يستريحون ويستجمون وجدوا قومًا هنا وهناك يعبدون آلهة من الأصنام.

وبمجرد أن شاهدوا ذلك قالوا لموسى:

﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾.

يقول سبحانه:

﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾. (الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩).

وهذا يدل على أن هؤلاء اليهود لم يكن عندهم فكرة صادقة عن الدين الحق فى أبسط مبادئه، وأنهم حينما كانوا فى مصر لم يكن عندهم شعور بالخلق الكريم، لأن الشعور بالخلق الكريم لا يتأتى إلا عن إيمان، عن قلب عامر بالإيمان.

ولأنهم لم يكن عندهم الإيمان الحق فإنه لايستغرب أن يعيثوا فى مصر فسادًا، وأن فرعون كان يستند على أسس قوية من فسادهم ومؤامراتهم

حينما نكل بهم. وطلبهم من موسى أن يجعل لهم آلهة أثار الحزن فى نفس رسول الله موسى عليه السلام فقال لهم:

﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾.

ولما نجاهم الله سبحانه ذكرهم بنعمه التى أسداها إليهم، وطلب إليهم الاستقامة فقال:

﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى، وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى﴾. (طه: ٨٠ - ٨٣).

ولقد كان تعقيب الله سبحانه وتعالى على هلاك فرعون قوله:

﴿كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قومًا آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾. (الدخان: ٢٥ - ٢٩).

ويذكر الإمام ابن كثير أنه لما خرج بنو اسرائيل من البحر اخذت أخت هارون الدف وضربت عليه، وخرج النساء فى أثرها كلهن بدفوف وطبول، وجعلت مريم ترتل لهن، ثم يقول:

وضربها بالدف فى مثل هذا اليوم الذى هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد؟ وهو مشروع لنا

أيضًا فى حق النساء، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف فى أيام منى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجع حوّل ظهره إليهن، ووجهه إلى الحائط، فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال: أمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فقال: «دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا».

وهكذا: يشرع عندنا فى الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر فى موضعه.

ولما انفصل موسى عن البحر ويمم وجهه شطر بيت المقدس علم موسى وقومه أن فى بيت المقدس قومًا جبارين فنكص قومه على أدبارهم، وحينما أمرهم موسى بدخول بيت المقدس محاربين لإخراج من فيها جبنوا جبنًا كاملًا، ويصور القرآن ذلك فى صورة تعبر عن بعض صفاتهم قائلًا:

﴿قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾. (المائدة: ٢٢ - ٢٥).

لقد كان عقاب الله سبحانه وتعالى لهم أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة، ثم قال لموسى عليه السلام:

﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

وهذه القصة تبين الفرق بين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحاب موسى عليه السلام: لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لمصادرة قافلة من قوافل قريش، وذلك لما كانت قريش تستولى على أموال المسلمين بكل طريقة، وتغتصبها ظلمًا وعدوانًا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه أفلتت منهم القافلة، وواجهوا جيش قريش وهو أكثر منهم عدة وعددًا، لقد كانوا ثلاثة أمثالهم فى العدد وأضعافهم فى العدة، فماذا كان من أمر المسلمين؟

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد الله الأحمس، عن طارق هو ابن شهاب. أن المقداد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر:

«يا رسول، إنّا لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون».

وعن طارق بن شهاب قال: عبد الله بن مسعود رضى الله عنه:

لقد شهدت من المقداد مشهدًا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلّى مما عدل

به: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى قتال المشركين فقال:

والله يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرق لذلك وسُرّ بذلك».

ولما جاء دور الأنصار فى الحديث ردًّا على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشيروا على أيها الناس» قام سعد بن معاذ فقال:

«كأنك تُعرّض بنا يا رسول الله؟ فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله».

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشّطه ذلك.

ولم تكن طبيعة اليهود تسمح بمثل ما سمحت به طبيعة أصحاب محمد فكان عقاب الله لهم.

* * *

وبعد فترة طالت أو قصرت أمر موسى بالاستعداد لمناجاة ربه، والاستعداد لهذا إنما هو نوع من التزكية التى تنتهى بالإنسان إلى صفاء يجعل المرء جديرًا بمناجاة ربه، ومنح موسى فترة تزكية هى: ثلاثون ليلة.

ولكن هذه الفترة لم تؤد إلى المستوى المطلوب فأتمها الله بعشر، يقول سبحانه:

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾.

وسار موسى للمناجاة راجيًا أن يستنير فى أمر التكاليف والشعائر والمبادئ المتعلقة بصلة الإنسان بربه، وبصلته بالمجتمع.

صعد موسى عليه السلام الجبل للمناجاة، ويقول ابن كثير فى ذلك:

قال الله تعالى: **﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾**. أى فى الوقت الذى أمر بالمجيء فيه، **﴿وكلمه ربه﴾**. أى كلمه الله من وراء حجاب، إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه، وقرّبه وأدناه، وهذا مقام رفيع، ومعقل منيع ومنصب شريف، ومنزل منيف، فصلوات الله عليه تترى، وسلامه عليه فى الدنيا والأخرى.

ولما أعطى هذه المنزلة العلية، والمرتبة السنية، وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار، القوى البرهان:

﴿رب أرنى أنظر إليك، قال لن ترانى﴾. ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان، لا يثبت عند التجلى من الرحمن، ولهذا قال.

﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى﴾.

ويخبر الله بعد ذلك عما كان فيقول:

﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾. (الأعراف: ١٤٣).

وتاب موسى إلى الله فى صدق وإخلاص فأعطاه الألواح التى يقول الله سبحانه وتعالى عنها:

﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلًا لكل شىء﴾. (الأعراف: ١٤٥).

وأمره سبحانه أن يأخذ بقوة فى العمل بما فيها ونشرها وتعميمها والقيام فى قومه على العمل بها. ثم بين الله سبحانه وتعالى له بعض قوانينه الإلهية قائلا:

﴿سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلًا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين. والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾. (الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧).

وكان فى الألواح الكلمات العشر وهى:

الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. والنهى عن الحلف بالله كذبًا. والأمر بالمحافظة على السبت: ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة،

وهذا حاصل بيوم الجمعة الذى نسخ الله به السبت.

أكرم أباك وأمك ليطول عمرك فى الأرض.

الذى يعطيك الله ربك..

لا تقتل..

لا تزن..

لا تسرق..

لا تشهد على صاحبك شهادة زور..

لا تمد عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا من الذى لصاحبك: ومعناه النهى عن الحسد.

وهذه الكلمات لها ما يماثلها فى كتاب الله سبحانه فى آيتين منه يقول الله تعالى:

﴿قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانًا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلابالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف

نفسًا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون﴾. (الأنعام: ١٥١-١٥٢).

وعاد موسى إلى قومه فإذا به يجد المأساة التى أخبره الله تعالى بها حين قال له:

﴿إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى﴾.

وعبر القرآن عن شعور موسى بقوله:

﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا﴾ (طه آية: ٨٥-٨٦).

لقد اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا، لقد صنعوه من الذهب الذى كان معهم، والذى سرقوه أو اختلسوه أو استعاروه من المصريين، صنعه لهم السامرى فى غيبة موسى عليه السلام.

لقد صنع لهم عجلاً جسدًا له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسى موسى هذا الإلٰه وذهب يبحث عنه وهو هاهنا معهم.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً﴾ (طه آية: ٨٩).

ويقول سبحانه:

﴿ألم يروا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ (الأعراف آية: ١٤٨).

وكان موسى - قبل ذهابه للمناجاة - قد استخلف على قومه هارون فلما اتخذوا العجل معبودًا لهم أخذ هارون عليه السلام يقول لهم:

﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى﴾ (طه آية: ٩٠).

وكانوا يقولون له:

﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ (طه آية: ٩١).

ولم تُجْدِ معهم نصائح هارون، لقد استضعفوه لم يبالوا به.

وها نحن نرى هنا من جديد جهل اليهود المطلق بالشعور الدينى الصادق، ونرى طمس بصيرتهم الروحية، لقد أحبوا أن يعبدوا إلهًا مجسدًا، ولو قال لهم موسى إنه إلهٌ لعبدوه، ولقد كانوا قريبى عهد ببيئة استخف ملكها قومه فأطاعوه، وقال لهم: ما علمت لكم من إلهٌ غيرى، فعبدوه.

لم يكن عند اليهود الشعور الدينى، ولم يكن عندهم العقل الذى يزن ويقدر ويعلم أن الإلهٌ لا يمكن أن يكون مجسدًا أو مصنوعًا صنعه الإنسان، كيف يصنع الإنسان مصنوعًا مركبًا يبلى على مر الزمن وينتهى ثم يعبده؟

ولم يكن عند اليهود ذوق، ولو كان هناك قليل من الذوق لما عبدوا عجلًا له خوار، وإن أرقى ما فى الوجود الإنسان، ومع ذلك فإنه مركب مولود يبلى ويفنى شيئًا فشيئًا ثم يموت، وقد كان يمكن لليهود صنع إلهٍ على هيئة إنسان ثم يعبدونه، فيكون صنعًا أرقى من عجل مصنوع، وما من شك فى أن العجل الحى أرقى من العجل المصنوع، ولو كان من ذهب، وآثر اليهود العجل المصنوع على العجل الحى، وآثروا العجل على الإنسان.

جاء موسى عليه السلام ليرى العجل، ويرى العابدين للعجل، وكانت ثورته فى المبدأ على من استخلفه على قومه، على هارون عليه السلام، ويعبر القرآن الكريم عن ذلك فى صورة طريفة، يقول سبحانه:

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين﴾ (الأعراف آية: ١٥٠).

ويقول سبحانه فى ذلك أيضًا:

﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، ألا تتبعن أفعصيت أمرى. قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى﴾ (طه آية: ٩٢-٩٤).

وهدأ موسى عليه السلام من ناحية أخيه وقال:

﴿رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ (الأعراف آية: ١٥١).

واتجه موسى إلى قومه قائلًا:

﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى﴾؟(طه آية:٨٦).

وأعلن:

﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين﴾ (الأعراف آية: ١٥٢).

وهذا - أى وكذلك نجزى المفترين - يصدق على كل انحراف يحدث فى دين، إنه يناله من الله غضب وذلة فى الحياة الدنيا، وهو فى الآخرة فى مقت الله.

أما قوم موسى فيتحدث الله عنهم قائلًا:

﴿ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف آية: ١٤٩).

وفتح الله باب التوبة، وهو سبحانه يفتح هذا الباب لكل من يلتجئ إليه فى اخلاص، وقال سبحانه فى ذلك.

﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من

بعدها لغفور رحيم﴾ (الأعراف آية: ١٥٣).

بيد أن شخصية أخرى لم تنل شيئًا من الرفق: إنها شخصية صانع العجل.

واتجه موسى إليه فى غضب قائلاً:

﴿فما خطبك ياسامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى. قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفًا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفًا﴾ (طه آية: ٩٥).

ولكن كيف يعالج موسى الأمر فيما يتعلق بغضب الله؟ إنه سبحانه عفو غفور لمن تاب وأناب، وسلك موسى باب التوبة، باب التضرع إلى الله، فاختار سبعين رجلاً من قومه، منهم هارون ويوشع ليستغفروا الله عن بنى إسرائيل الذين عبدوا العجل، يقول سبحانه:

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ (الأعراف آية: ١٥٥).

قال محمد بن اسحاق:

«اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً: الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه بما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم».

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يناالهم بشيء من العقاب على عبادة العجل فأخذتهم الرجفة، وأفزعهم الأمر، فسارع موسى يدعو الله ويتضرع إليه.

﴿**رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك**﴾ (الأعراف آية: ١٥٥-١٥٦).

إن موسى يتضرع إلى الله مبينًا الأمر - والله أعلم به - قائلًا: إنا جئنا تائبين ولو شئت سبحانك لأهلكتهم قبل السعى إلى التوبة، بل لو شئت لأهلكتنى معهم، فإنك لا تسأل عما تفعل، وحكمتك فوق كل حكمة.

لقد اتخذ العجل بعض السفهاء إلهًا وعبدوه، وجئنا نستغفر ونتوب. أو تهلكنا سبحانك بما فعل السفهاء منا؟

وما كانت عبادتهم إلا بقضاء منك وقدر، اختبارًا لهم وامتحانا، فما هى إذن إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء.

وبدأ موسى عليه السلام فى التضرع والدعاء قائلًا:

﴿**أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك**﴾ (الأعراف آية: ١٥٥-١٥٦).

يقول ابن عباس وغيره: «أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا».

وقال الله سبحانه فى عظمة وجلال ورحمة:

﴿عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾.

والواقع أن مسألة رحمة الله التى وسعت كل شىء لها مجالها الكبير فى الإسلام، وإن من أجمل ما قرأت فى آدابنا الإلهية ما رواه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه:

يا ابن آدم، مرضت فلم تعدنى.

قال: يارب: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟.

قال: أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده؟. أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمنى.

قال: يارب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟.

يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقنى؟

قال: يارب، وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى (رواه مسلم).

وللحديث عن الرحمة مجالات نتحدث عنها فيما بعد.

وقد تتساءل: لمن سيكتب الله رحمته؟

إنه سبحانه بين ذلك، وذكر أنه سيكتبها لمن تتوافر فيهم شروط:

وأولها: الذين يتقون.

ولقد سئل أحد الصحابة عن التقوى فقال للسائل:

أما سرت فى مكان فيه شوك؟

قال: بلى سرت.

قال: فما فعلت؟

قال: شمرت واجتهدت.

قال: فذلك التقوى.

إنها تشمير عن السيئات واجتهاد فى الطاعات.

ويؤتون الزكاة: وهذا هو الشرط الثانى: إنه أداء الزكاة، والزكاة تطهير للمال، وتطهير للنفس، يقول تعالى:

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ (التوبة آية: ١٠٣).

ومن طريف ما يروى أن كثيرين من العلماء سئلوا عن قوله تعالى:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون﴾ (التوبة آية: ٣٤-٣٥).

فكانوا يجيبون: أن المال المزكى لا يقال عنه أنه مكنوز أو كنز.

والزكاة هنا إنما هى رمز لبقية الفروض.

ثالثا: ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ وما من شك فى أن العمل الذى لا يكون صادرًا عن الإيمان لا قيمة له، والله سبحانه وتعالى يقول عن المشركين وأعمالهم:

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوًّا كبيرًا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورًا، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا﴾ (الفرقان آية: ٢١-٢٣).

ثم نوه الله سبحانه وتعالى فى هذا المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم وبأتباعه:

يقول صاحب كتاب «محاسن التأويل»: قال العلامة البقاعى: «لما تراسلت الآى، وطال المدى فى أقاصيص موسى عليه السلام،

وبيان مناقبه العظام، ومآثره الجسام، وكان ذلك ربما أوقع فى بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصبًا، وأعظمهم رتبة، ساق سبحانه هذه الآيات هذا السياق، على هذا الوجه الذى بين أعلاهم مراتب، وأزكاهم مناقب، الذى خص برحمته من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلًا، وجعل سبحانه ذلك فى أثناء قصة بنى إسرائيل اهتمامًا به وتعجيلًا له، مع ما سيذكر مما يظهر أفضليته، ويوضح أكمليته، بقصته مع قومه فى مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه، فى سورة «الأنفال» و«براءة» بكمالها.

وإن من المؤمنين بآيات الله الذين سيكتب سبحانه رحمته لهم هؤلاء الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى حدثهم الله سبحانه وتعالى عنه فى التوراة الصادقة التى أنزلها على موسى عليه السلام، وفى الإنجيل الذى أنزله على عيسى عليه السلام.

وما من شك فى أن كتب الله ورسله يبشرون بأشياء تحدث فى المستقبل. وينذرون بأشياء يجب أو ينبغى أن تتحاشى فى المستقبل.

من هذه البشارات ما بشر به الله سبحانه فى التوراة والإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وهو سبحانه يذكر أيضًا بشارات بعض ما سيقوم به بإذن الله، ومنها: **﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾**.

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بقوله وفعله، ومن قوله فى الحث على ذلك:

«والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذنّ على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم» رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن.

ومن ذلك أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم:

«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رواه مسلم.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).

والقرآن الكريم يقول:

﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ (والآية من سورة المائدة: ٧٨-٧٩).

ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

ولقد اهتم الإسلام بذلك بشدة.

وانظر إلى البيعة.. بيعة المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه:

«بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف. فمن وفىّ منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك» رواه البخارى.

ويقول الله سبحانه:

﴿يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ (الممتحنة آية: ١٢).

وانظر على الخصوص فى قوله تعالى: **﴿ولايعصينك فى معروف﴾**. وقول الصحابى رضى الله عنه: ولانعصى فى معروف.

إن الأمر ليس أمر طاعة مطلقة وإنما هى الطاعة فى المعروف، إنها طاعة محددة بالمعروف. والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال:

تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال: ياسعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أيها الناس، إن الله طيب لايقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بماتعملون عليم﴾.

وقال:

﴿يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم﴾.

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب له؟

وتحريم الخبائث فى الإسلام باب طويل مستفيض.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾.

يقول الإمام جمال الدين القاسمى عن ذلك:

إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«بعثت بالحنيفية السمحة».

وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه معاذ وأبى موسى رضى الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن.

(بشروا ولاتنفروا، أو يسرا ولاتُعسرا، وتطاوعا ولاتختلفا).

والإصر: هو مايشق على الإنسان من الأعمال والتكاليف.

ثم تحدث سبحانه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعما يجب بالنسبة له فقال تعالى:

﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (الأعراف آية: ١٥٧).

والإيمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الأمور التى لها أسباب وعلل واضحة، وذلك:

١ - لأنه الرسول الوحيد الذى حفظت آثاره، وحفظ الكتاب الذى

أرسل به فى صورة لا تقبل الشك، والرجوع إليها رجوع إلى معروف صادق من التاريخ، والبحث فيها ميسور لا صعوبة فيه.

٢ - ولأن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يلتزم ما يأمر به، بل ويزيد عليه.. لقد كان يصلى أكثر مما يصلى الآخرون. ويصوم أكثر مما يصوم الآخرون، وكان ينفذ كل القواعد التى أمر ببنائها وينتهى عن كل المنهيات التى ينهى عنها.

٣ - ولقد أتى القرآن بالأدلة العقلية التى تثبت نبوته، فأخذ منها المؤلفون فى دلائل النبوة المنهج والموضوع الذى ساروا عليه.

٤ - لقد أتى بمعجزات حسية كثيرة، بيد أن المعجزة الكبرى له إنما كانت القرآن: كتاب الهداية الأكبر، كما أنه كتاب العربية الأكبر، إنه الكتاب الذى يأمر بالتى هى أقوم: فى الأخلاق والعقيدة والتشريع ونظام المجتمع.

٥ - كان صلى الله عليه وسلم بحياته كلها مثلًا للكمال الإنسانى فى أعلى ذروة من ذراه، وكان مع الله دائمًا فى كل تصرفاته، ولم تؤثر عنه كذبة. ولقد كان يمثل الصدق فى أتم صورة[1].

---

(١) ولقد ألفنا كتابًا كاملًا عن دلائل النبوة أوضحنا فيه فى أسلوب واضح دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

بقرة بنى إسرائيل

قال تعالى:

﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوًا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال إنه يقول إنها بقرة لافارض[١] ولابكر عوان[٢] بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع[٣] لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى، إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول[٤] تثير الأرض ولاتسقى الحرث مسلمة لاشية[٥] فيها قالوا الآن جئت بالحق، فذبحوها وماكادوا يفعلون. وإذ قتلتم نفسا

---

(١) أى لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة: أى لم يطرقها فحل.

(٢) وسط بين الكبيرة والصغيرة أقوى ما يكون من الدواب.

(٣) أى شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض.

(٤) غير مرهقة بالعمل كالحراثة وسقى الأرض.

(٥) ليس فيها لون غير لونها سالمة من العيوب.

فادّارأتم[1] فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ (البقرة آية: ٦٧-٧٣).

روى ابن جرير بسنده - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

«لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم».

وقال ابن جرير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد».

ولم يهتد بنو إسرائيل إلى البقرة المطلوبة إلا حينما سلموا أمورهم إلى الله طالبين الهداية: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

«لولا أن بنى إسرائيل قالوا ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ لما أعطوا ولكن استثنوا» وفى رواية عنه قال:

«لولا أن بنى إسرائيل قالوا ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ ما أعطوا أبدًا، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم».

---

(١) اختصمتم.

موسى عليه السلام يطلب العلم

قال الله تعالى:

﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا. فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربًا، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً، قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصًا، فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معى صبرا، وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً، قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرًا، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرًا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا، قال لاتؤاخذنى بمانسيت ولاترهقنى

من أمرى عسرًا، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله، قال أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرًا، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا، قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل القرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه قال لوشئت لاتخذت عليه أجرًا. قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومافعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرًا﴾ (سورة الكهف: ٦٠-٨٢).

وروى البخارى: «باب قول: وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبًا - زمانًا - وجمعه أحقاب».

خدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار قال: أخبرنى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنى أبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

إن موسى قام خطيبًا فى بنى اسرائيل، فسئل، أى الناس أعلم؟ قال أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه.. إن لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى. يارب فكيف لى به؟

قال: تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكْتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتًا فى مكتل ثم انطلق، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا.

قال: ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذى أمر الله به، فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً.

قال: فكان للحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا.

فقال موسى: ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً.. قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوباً، فسلم عليه موسى، فقال الخضر، وإنى بأرضك السلام.

قال: أنا موسى.

قال: موسى بنى اسرائيل؟

قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدًا.

قال: إنك لن تستطيع معى صبرًا ياموسى، إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه.

فقال موسى: ستجدنى إن شاء الله صابرًا ولا أعصى لك أمرًا فقال له الخضر: فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرًا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلماهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نوْل، فلما ركبا فى السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد خلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نوْل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا! قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا. قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرًا. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكانت الأولى من موسى نسيانًا.

قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ماعلمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر

غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله.

فقال له موسى: أقتلت نفسًا زكية بغير نفس لقد جئت شيئًا نكرًا.

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرًا.

قال: وهذه أشد من الأولى.

قال: إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرًا.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقضّ قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجرًا.

قال: هذا فراق بينى وبينك - إلى قوله - ما لم تستطع عليه صبرًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما.